

سيكولوجية القيم بين أصلها الفطري واعتباطية نسبها للمجتمع وأهمية تفكيدها بالصحة النفسية
المقال الرابع والعشرون



methqalm@yahoo.com

د. موسى الزحبي - الطب النفسي، سوريا / السعودية

جلّ المدارس النفسية تؤكد أن هدف الإنسان بالحياة هو الحصول على السعادة واللذة والتخلص من الألم، وتجعل المجتمع معيار تقدير و تحقيق الذات فالمجتمع هو المعيار. والسؤال هل فعلا التماثل والتماهي مع المجتمع وقيمه وكسب رضاه هو الحكم والخصم بالصحة النفسية؟!

فما هي القواعد والمعايير التي تحكم سلوك الإنسان ليحقق ذاته وانتمائه دون عقابيل نفسية محققا السعادة المنشودة له !! وتصف سلوكه بالصح أو الخطأ! أو الخير أو الشر بمفهوم آخر ! وما هي القواعد المثلى التي يجب على كل إنسان السعي لتطبيقها؟ و ماهي السلوكيات التي عليه تجنبها والامتناع عنها ليصبح أكثر سواء وصحة نفسية؟! هل اللذة العاجلة أم اللذة الأجلة أم الرهينة والتصوف أم غيرهم ؟!... ما هو مصدر تلك المثل والقواعد العليا التي تكون حاکمة لسلوك الإنسان عموما خلال عمره القصير وتسبب له الشعور بالندم وتأنيب الضمير في حال حاد عنها ؟!...

هذه التساؤلات كانت ولا تزال محور بحث لدى أغلب العلماء قديما وحديثا ونتاج ذلك انعكس وينعكس أوتوماتيكيا على علم النفس والتصنيفات النفسية لذلك نلاحظ تغيير مفهوم الصحة النفسية كل حين بسبب التطور الحضاري وتطور المجتمعات حتى وصلنا لعولمة وطبعة بعض الاضطرابات النفسية بسبب هيمنتها على المجتمعات وعجز المؤسسات العلمية عن مواجهتها فلم تجد حلاً غير اعتبارها نتيجة حتمية وطبيعية من التطور البشري الدارويني فالمخدرات أصبحت تباع كالدواء ببعض الدول! وشرع زواج المثليين! والتبني! وكذلك الإجهاض والموت الرحيم! وغيرها من أمور جعلت الموازين تضطرب، ولو رجعنا قليلاً بالتاريخ لكشف لنا سبب هذا التخبط فقد اعترف مختلف العلماء عبر التاريخ كذلك الأديان بوجود مثل عليا وقانون طبيعي يحكم سلوك البشر يتشابه من حيث المبدأ مع القانون المادي الذي يحكم الأشياء المادية كالجاذبية والتفاعلات الكيماوية وأن الخشب يطفو على الماء وغيرها..

واعتبروا أن المثل العليا التي تسيّر سلوك الإنسان كدافع الخير والعدالة والرحمة والفضيلة قيم خالدة وسرمدية لا تتغير بتغير الزمان والمكان، ولكن اختلفوا بمصدر هذه القيم فاعتبرها بعض فلاسفة اليونان أنها موجودة بعالم المثل فوق القمر أو تحته؟! حسب تعبيرهم بينما اعتبر البعض الآخر مصدرها العقل البشري الذي يضع المعايير الحاكمة مسبقا للسلوك والفكر البشري ثم جاء أوغسطينين وتوما الأكويني فاعتبروا القيم العليا والأخلاق مصدرها الدين .. فلو أخذنا غريزة العدل الفطرية مثلا فهي موجودة لدى كل

جلّ المدارس النفسية تؤكد أن هدف الإنسان بالحياة هو الحصول على السعادة واللذة والتخلص من الألم، وتجعل المجتمع معيار تقدير و تحقيق الذات فالمجتمع هو المعيار

السؤال هل فعلا التماثل والتماهي مع المجتمع وقيمه وكسب رضاه هو الحكم والخصم بالصحة النفسية؟!

فما هي القواعد والمعايير التي تحكم سلوك الإنسان ليحقق ذاته وانتمائه دون عقابيل نفسية محققا السعادة المنشودة له !!

هل اللذة العاجلة أم اللذة الأجلة أم الرهينة والتصوف أم غيرهم ؟!... ..

هذه التساؤلات كانت ولا تزال محور بحث لدى أغلب العلماء قديما وحديثا ونتاج ذلك انعكس وينعكس أوتوماتيكيا على علم النفس والتصنيفات النفسية

نلاحظ تغيير مفهوم الصحة النفسية كل حين بسبب التطور الحضاري وتطور المجتمعات حتى وصلنا لعولمة وطبعة بعض

الاضطرابات النفسية بسبب
هيمنتها على المجتمعات وعجز
المؤسسات العلمية عن مواجهتها

لم تجد حلًا غير اختبارها نتيجة
حتمية وطبيعية من التطور
البشري الدارويني فالمخدرات
أصبحت تباع كالدواء ببعض
الدول! وشرف زواج المثليين!
والتبني! وكذلك الإجهاض
والموت الرحيم! وغيرها من
أهم جعلت الموازين تضرب

المترفة مختلف العلماء عبر
التاريخ كذلك الأديان بوجود
مثل عليا وقانون طبيعي يحكم
سلوك البشر يتشابه من حيث
المبدأ مع القانون المادي
الذي يحكم الأشياء المادية
كالجاذبية والتفاعلات
الكيميائية وأن الخشب يطفو
على الماء وغيرها

أن المثل العليا التي تسيّر سلوك
الإنسان كدافع الخير والعدالة
والرحمة والفضيلة قيم خالدة
وسرمديّة لا تتغير بتغير الزمان
والمكان

فلو أخذنا خريطة العدل الفطرية
مثلا فهي موجودة لدى كل
إنسان دون تعلم ودون توافق
عقلي بل هي سابقة على العقل
وحادة له

أن خريطة العدل محرك للسلوك
البشري وليس فقط الغرائز
البدائية الحيوانية كما تزعم
معظم المدارس النفسية وهكذا
مع بقية غرائز الفطرة...

مع بداية العصر الحديث
والخروج من الدين بدأ التمرد
والتنكر للقانون الطبيعي
والمثل والقيم البشرية العليا التي
أقرت بها البشرية طوال تاريخها
بدأ القول بأن هناك قانون

إنسان دون تعلم ودون توافق عقلي بل هي سابقة على العقل وحادة له فلو حصل موقف فيه ظلم أمام أي
إنسان فإن غريزة العدل تتحرض سريعاً مرسلّة إثارة للإنسان كي يتخذ سلوكاً ضد الظلم فيبدأ العقل
بالتحقق من حقيقة الظلم معرفياً ليتخذ موقفاً مناسباً حسب الإطار المرجعي لكل إنسان فإذا كان مناسباً
لفطرة العدل انعكس إيجاباً على الصحة النفسية وكذلك العكس.. وهنا نلاحظ أن غريزة العدل محرك
للسوك البشري وليس فقط الغرائز البدائية الحيوانية كما تزعم معظم المدارس النفسية وهكذا مع بقية غرائز
الفطرة...

ولكن مع بداية العصر الحديث والخروج من الدين بدأ التمرد والتنكر للقانون الطبيعي والمثل والقيم
البشرية العليا التي أقرت بها البشرية طوال تاريخها فبدأ القول بأن هناك قانون وقيم إنسانية عالمية ولكنها
ليست خالدة أو سرمديّة وأن هذه القيم توافقية ووضعية تمثل كل شعب بكل زمان ومكان مختلفة عن
الشعوب الأخرى ولا وجود لشيء اسمه قانون و مثل عليا خالدة سرمديّة تحكم سلوك البشر وتطور
المجتمعات وأن القيم متغيرة حسب كل مجتمع ومكانه وزمانه وكان غايته عدة أمور منها: القطيعة مع
الماضي وخاصة التراث الديني لقطع علاقته بمصدر القيم كما كان متعارف عليه طوال التاريخ إضافة
لتبرير سلوك المهيمنين على المجتمع والشعوب سواء كدول استعمارية أو رأسماليين. وقوانينهم الوضعية
ورغم كل هذا فقد أثبتت الأيام فشل ذلك على الأقل نظرياً وتمثل ذلك بإقرار ميثاق حقوق الإنسان
والاعتراف بالطبيعة الإنسانية الحرة.

وتأثر بتلك المفاهيم علم النفس والمدارس النفسية بمختلف مشاربها حيث جعلوا الإنسان أسير قيم
مجتمعه وعليه التوافق معها ليصبح سويًا نفسيًا ويحقق ذاته وانتمائه بذلك وينال تقديره واحترامه من
محيطه كي يحصل على السعادة وكما يقال إرضاء الناس غاية لا تدرك... ونشأ نتيجة ذلك كثير من
الاضطرابات النفسية وأصبح الإنسان يعيش ازدواجيةً نفسيةً مرضيةً بين نداء الفطرة داخله وعدم الاعتراف
بهذه الفطرة مجتمعياً من جهة أخرى إضافة لمحاولة تنميط الفرد مجتمعياً فأصبح الإنسان أكثر إحباطاً
ويأساً من الواقع والحياة بمختلف مراحل عمره وخاصة سن المراهقة وهو سعيه للتماثل مع محيطه خشية
الرفض والإحباط.

واستنزف الإنسان المعاصر دفاعاته النفسية وهرمونات السعادة في سبيل التوافق مع المجتمع و الحياة
المعاصرة بسبب هيمنة المفاهيم المغلوطة وأصبح الاكتئاب أكثر مرضاً بالعالم من حيث الانتشار وتسبب
العجز تقريباً ..

والحقيقة أن مصدر القيم هو الفطرة وليس عالم المثل وليس المجتمع أو الوالدين وليس هي توافق
عقلي أو تواضع بين أبناء المجتمع أو الدول عليها

بل هذه القيم تمثل حقيقة الإنسان منذ خلقه ولا تتغير بتغير الزمان أو المكان او الحضارات فهي
وحدة عند العرب والصينيين والأغريق والاوربيين قديماً وحديثاً.

ولكن الذي يختلف هو مدى التخلق فيها والزاميتها فكرياً وسلوكياً لكل مجتمع وأفراده، وهنا لا شك
يلعب الدين وبعض القوانين والتقاليد دوراً بتفعيل هذه القيم الفطرية ولكن يبقى المعتقد الديني الذي يتوافق

وقيم إنسانية عالمية ولكنها ليست خالدة أو سرمدية وأن هذه القيم توافقية ووضعية تمثل كل شعب في كل زمان ومكان مختلفة عن الشعوب الأخرى

كان غايته عدة أمور منها:
القطيعة مع الماضي، وخاصة التراث الديني لقطع علاقته بمصدر القيم كما كان متعارف عليه طوال التاريخ

تأثر بتلك المفاهيم علم النفس والمدارس النفسية بمختلف مشاربها حيث جعلوا الإنسان أسير قيم مجتمعه وعلية التوافق معها ليصبح سويًا نفسيًا ويحقق ذاته وانتهاه بذلك وينال تقديره واحترامه من محيطه كي يحل على السعادة

نشأ نتيجة ذلك كثير من الاضطرابات النفسية وأصبح الإنسان يعيش ازدواجية نفسية مرضية بين نداء الفطرة داخله وعدم الاعتراف بهذه الفطرة مجتمعياً من جهة أخرى

مع القيم الفطرية كالأديان السماوية هو الأكثر قوة ومصداقية في الزاميتها وميثاق حقوق الإنسان الذي جاء بحقيقة هذه القيم الفطرية حيث وضعه أكثر من مئة وخمسين شخصاً من أديان وثقافات ومجتمعات ومشارب مختلفة توافقوا على نفس القيم مما يؤكد حقيقتها الفطرية وحقيقتها الفطرية ولكن افتقد إلى التطبيق والإلزامية بسبب القطيعة مع حقيقة الإنسان وصلته بالفطرة الإلهية والتي تجعل الإنسان أكثر إنسانية وبالتالي أكثر سواءً وصحة نفسية لأنه يدرك يقينا ان مخالفتها لا تجعله يتسفل بالدنيا فقط بأن يصبح أسير الغرائز الترابية بل عليه وزراً بالعالم الأخرى ولا يوجد شعيرة دينية سماوية إلا وتفعل غريزة فطرية كي يتحرر الإنسان من القيم السلبية بالغرائز الترابية أو الحيوانية و لا ينساق لها وبالتالي يصبح أكثر حرية وتحرراً من أسر الواقع والمجتمع لفضاء الفطرة الرحب..

وختاماً فإن التحدي الأكبر الذي نعيشه اليوم ويقع على عاتقنا كعاملين بالمجال النفسي هو التعيد لدور القيم كأساس فطري مسير للسلوك البشري أقوى وأكثر هيمنة من دور الغرائز الترابية والمعرفية وأن هذه القيم الفطرية ليست آليات دفاع ومعاوضة نفسية كرد فعل على الواقع بل تمثل حقيقة الإنسان وإن تجاهل هذه الحقيقة هو السبب بارتفاع الاضطرابات العصابية لأنه يتم طمس وإلغاء الفطرة ظاهرياً بينما فعليا تبقى غرائز الفطرة ترسل إشارات بيوكهرائية للشخص مثيرة للقلق الفطري وتأنيب الضمير والندم كي يرجع الشخص لسكة القيم الفطرية ويستعيد توازنه النفسي قبل أن تتكلس القيم السلبية بإطاره المرجعي ولا يستطيع بعدها الرجوع لفطرتة.

ومصدرية القيم والزاميتها يشكل أيضاً تحدياً وجودياً وإنسانياً ونفسياً بين عالمنا الإسلامي والعربي و الآخرين حول حقيقة الإنسان وموجبات سعادته أين كان لونه وجنسه وعرقه ودينه ونشله من المآسي النفسية والمجتمعية والحروب والفقر وذلك بالتأكيد على فطرية القيم لأن الإنسان بدون هذه القيم الفطرية يتسفل حيوانياً بانسياقه وراء غرائزه البدائية بالجماع والإباحية والقتل والعدوانية للتخلص من القلق والوحشة المؤلمة والعدمية التي تحيط بنفسه وتعلق عقله...

إرتباط كامل النص:

<http://www.arabpsynet.com/Documents/Doc.Zoobi.Instinct&LangPsy14.pdf>

*** **

شبكة العلوم النفسية العربية

نحو تعاون عربي رقياً بعلوم وطب النفس

الموقع العلمي

<http://www.arabpsynet.com/>

المتجر الإلكتروني

<http://www.arabpsyfound.com>

الكتاب السنوي 2022 " شبكة العلوم النفسية العربية " (الاصدار الحادي عشر)

الشبكة تدخل عامها 22 من التأسيس و 19 على الويب

22 عاماً من الضج... 19 عاماً من المنجزات

(التأسيس: 2000/01/01 - على الويب: 2003/06/13)

<http://www.arabpsynet.com/Documents/eBArabpsynet.pdf>